Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070309 **Pages: 110-123**

التأثيرات العقديّة والأخلاقيّة للحداثةِ في الفكر الإسلاميّ

أ. م. د. عبد الرزاق لطيف جاسم

قسم حوار الأديان والحضارات، كلية العلوم الإنسانية، جامعة بلاد الرافدين، ديالى، 32001، العراق.
DrAbdAlrazaaq@bauc14.edu.iq

الملخص

يهدف البحث الحالي إلى دراسة التأثيرات العقدية والأخلاقية للحداثة في الفكر الإسلامي عبر تحليل مدى تأثير الفكر الحداثي على العقيدة الإسلامية والقيم الأخلاقية، يناقش البحث كيف سعت الحداثة إلى إعادة تأويل النصوص الدينية وإضعاف أثرها العقدي وتمجيد الفرق الباطنية وإحلال القيم الوضعية بدلًا من القيم الدينية مما أدى إلى تفكك الأخلاق الإسلامية وانتشار النزعة الفردية والمادية. اعتمد الباحث على المنهج التحليلي النقدي في دراسة المفاهيم الحداثية وتأثيرها على العقيدة الإسلامية ومقارنتها بالتصورات الإسلامية الصحيحة، كما استخدم المنهج التاريخي لتتبع نشأة الحداثة في الغرب ومسار انتقالها إلى العالم الإسلامي ومدى تأثيرها على الفكر الإسلامي. خلص البحث إلى أن الحداثة لا تقتصر على الأبعاد الثقافية والفلسفية فحسب بل تتغلغل في المجال العقدي إذ تسعى إلى إعادة صياغة المفاهيم الدينية وفق رؤية عقلانية مادية تتعارض مع الأصول الإسلامية الراسخة ومن خلال ذلك تعمل الحداثة على تفكيك المرجعيات الدينية التقليدية وإحلال تفسيرات جديدة تتجاوز الثوابت الشرعية مما يؤدي إلى إضعاف البنية العقدية وإعادة تشكيل التصورات الإيمانية وفق مناهج فكرية تتنافى مع جوهر العقيدة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، العقيدة الإسلامية، التأثيرات الفكرية، الإلحاد، التأويل الحداثي، النزعة العقلانية، القيم الوضعية، التفكيك العقدي، الخطاب الإسلامي المعاصر.

The Doctrinal and Ethical Effects of Modernity in Islamic Thought

Assist. Professor. Dr. Abd Alrazaaq Lateef Jassem

Department of Civilizations and Religions Dialogue, College of Human Sciences, Bilad Al-Rafidain University, Diyala, 32001, Iraq.
DrAbdAlrazaaq@bauc14.edu.iq

Abstract

The current research aims to study the doctrinal and ethical effects of modernity in Islamic thought by analyzing the extent to which modernist thought has influenced Islamic doctrine and moral values. The research discusses how modernity has sought to reinterpret religious texts, weaken their doctrinal impact, glorify esoteric sects, and replace religious values with secular ones, leading to the disintegration of Islamic ethics and the spread of individualism and materialism. The researcher adopted the analytical and critical approach to study modernist concepts and their impact on Islamic doctrine, comparing them with authentic Islamic perspectives. Additionally, the historical approach was employed to trace the origins of modernity in the West, its transmission to the Islamic world, and its influence on Islamic thought. The study concluded that modernity is not limited to cultural and philosophical dimensions but also penetrates the doctrinal sphere, seeking to reshape religious

concepts based on a materialist rationalist vision that contradicts established Islamic principles. Through this process, modernity works to dismantle traditional religious frameworks and introduce new interpretations that override fundamental religious constants. This, in turn, leads to the weakening of doctrinal structures and the reformation of faith-based perceptions according to intellectual methodologies that are incompatible with the essence of Islamic doctrine.

Keywords: Modernity, Islamic doctrine, intellectual influences, atheism, modernist interpretation, rationalist approach, secular values, doctrinal deconstruction, contemporary Islamic discourse.

المقدمة

يُعدّ الفكر الإسلامي على مر العصور أحد الركائز الأساسية التي قامت عليها الهوية الإسلامية للأمة إذ استند إلى الوحي الإلهي والتفسير الصحيح للنصوص الشرعية فكان في تطوره امتدادًا طبيعيًا لمنهج الإسلام في الاستجابة للتغيرات دون المساس بجوهر العقيدة ومع ذلك فقد شهد العصر الحديث تحديات فكرية غير مسبوقة من أبرزها ما يُعرف بـ الحداثة التي لم تكن مجرد تيار فكري أو حركة فلسفية بل مثلت تحولًا جذريًا في أنماط التفكير والتصورات العقدية والأخلاقية، بما أفرزته من مبادئ تعيد تشكيل القيم والمفاهيم الدينية والتاريخية والاجتماعية.

لقد نشأت الحداثة في الغرب الأوروبي في إطار مراجعات فكرية وثورات معرفية قادت إلى القطع مع الموروث الديني والتراث التقليدي وإلى تعزيز الرؤية المادية والإنسانية التي تجعل الإنسان مركز الكون وهو مما أدى إلى تفكيك الأطر الدينية والأخلاقية التقليدية وإحلال قيم وضعية قائمة على النسبية والتجريبية بدلًا من القيم الثابتة ومع انتقال الحداثة إلى العالم الإسلامي حملت معها تأثيرات عميقة خصوصًا فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية والأخلاق إذ سعت إلى إعادة تفسير النصوص الشرعية وفق تأويلات جديدة واستخدام مناهج تفكيكية وتاريخية تفرغها من محتواها الإلهي فضلًا عن الترويج لأفكار تتعارض مع الأسس الإيمانية كالعقلانية المطلقة والنسبية الأخلاقية وإنكار المفاهيم الغيبية.

أولاً: إشكالية البحث

يطرح هذا البحث إشكالية محورية تتمثل في التساؤل الرئيس الاتي:

إلى أي مدى أثرت الحداثة كظاهرة فكرية وفلسفية على العقيدة الإسلامية والمنظومة الأخلاقية للمجتمعات الإسلامية وما هي أبرز التحديات التي نتجت عن هذا التأثير؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية، ومنها:

- ما مفهوم الحداثة في الفكر الإسلامي وكيف نشأت وتطورت داخل السياق الغربي؟
- ما أبرز التأثيرات العقدية للحداثة على الفكر الإسلامي؟
- ما العلاقة بين الفكر الحداثي وانتشار الإلحاد في المجتمعات الإسلامية؟
- كيف استُخدمت الحداثة لإعادة تفسير المصطلحات والمفاهيم الدينية بطريقة تتنافى مع العقيدة الإسلامية؟

ثانيًا: هدف البحث

يسعى البحث الحالي إلى تحقيق جملة من الأهداف التي ترتبط بشكل مباشر بتحليل التأثيرات العقدية والأخلاقية للحداثة في الفكر الإسلامي وذلك من خلال:

1. توضيح مفهوم الحداثة منذ نشأتها وتطورها ومدى تأثيرها على الفكر الإسلامي.
2. تحليل التأثيرات العقدية للحداثة على الفكر الإسلامي.
3. رصد التأثيرات الأخلاقية للحداثة على القيم والسلوكيات الإسلامية.
4. دراسة التأثيرات الاجتماعية والثقافية للحداثة على المجتمعات الإسلامية.

ثالثًا: فرضية البحث

تفترض هذه الدراسة أن الحداثة قد أحدثت تحولًا كبيرًا في الفكر الإسلامي، ليس فقط في مناهج التفكير ولكن أيضًا في مستوى العقيدة والقيم الأخلاقية، حيث:

- أدت النزعة العقلانية الحداثية إلى انتشار الشكوك في القضايا العقدية الإسلامية وإلى تبني تأويلات منحرفة عن الفهم الصحيح للنصوص الشرعية.
- ساهمت الحداثة في إعادة تفسير المفاهيم الدينية مما أدى إلى زعزعة بعض المسلمات العقدية عند فئات معينة، لا سيما الشباب المتأثر بالفكر الفلسفي الغربي.
- كان للحداثة دور في تقويض القيم الأخلاقية الإسلامية التقليدية، إذ تم استبدالها بقيم نسبية قائمة على الفردانية والمصلحة المادية.

رابعًا: منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي، إذ يتم تحليل الأفكار الحداثية وتأثيرها على الفكر الإسلامي ومقارنتها بالمفاهيم العقدية والأخلاقية المستمدة من النصوص الشرعية. كما يستخدم المنهج التاريخي لتتبع نشأة الحداثة ومسار تطورها وكيفية انتقالها إلى العالم الإسلامي وتأثيرها على الفكر الإسلامي.

خامسًا: هيكلية البحث

المبحث الأول: ماهية الحداثة في الفكر الإسلامي
يتناول هذا المبحث مفهوم الحداثة من خلال الفروع الاتية:
الفرع الأول: المفهوم اللغوي للحداثة
الفرع الثاني: المفهوم الاصطلاحي للحداثة
الفرع الثالث: أشكال الحداثة في الفكر العربي و الإسلامي
المبحث الثاني: الآثار العقدية والأخلاقية للحداثة في الفكر الإسلامي
ويتناول هذا المبحث الاثار المترتبة من الحداثة في الفكر الإسلامي من خلال الفروع الاتية:
الفرع الأول: الآثار العقدية للحداثة
الفرع الثاني: الآثار الأخلاقية للحداثة
الفرع الثالث: الآثار الاجتماعية والثقافية للحداثة
الخاتمة

المَبحث الأَول

ماهية الحداثة في الفكر الإسلامي

الحداثة كمفهوم تُعد من المصطلحات التي يصعب حصرها في تعريف واحد شامل فهي تتجاوز نطاق الفهم البسيط لتعبر عن أبعاد متعددة تتفاوت حسب السياق الذي تُناقش فيه ولهذا فإن محاولة الوصول إلى تعريف ثابت للحداثة عادةً ما تواجه تحديات بسبب تعدد الزوايا الفكرية التي تم تناولها منها وبناءً على ذلك سنحاول هنا التعمق في هذا المفهوم من خلال دراسة الحداثة في الفكر الإسلامي عبر عدة جوانب وكما يأتي:
الأول: المفهوم اللغوي للحداثة
الثاني: المفهوم الاصطلاحي للحداثة
الثالثاً: أشكال الحداثة في الفكر الإسلامي

الفرع الأول

المفهوم اللغوي للحداثة

الحداثة لغةً تُفهم من خلال تعبيرمهم: "حدث الشيء يحدث حدثاً وحداثة" وأحدثه، فهو محدث وحديث، كما يُقال: "استحدثه". فالحديث هو إيجاد شيء جديد لم يكن موجوداً من قبل والحديث والحدوث يقابلهما القديم والقِدَم، فهما يشيران إلى حدوث أمر لم يكن مألوفاً أو معروفاً سابقاً و"المُحدَث" يُطلق على ما أُبدِع واستُحدث وعبارة "استحدثتُ خبراً" تعني إيجاد خبر جديد ويُقال "الحديث الجديد من الأشياء" للإشارة إلى الأمور المستجدة، كما أن الحدث يُشير إلى الشباب، أو إلى أمر غريب وغير معتاد، عندما يُقال "العالَم مُحدَث" يُقصَد به أنه مخلوق له صانع وليس أزلياً، وعليه فالحداثة تعني الجِدة، أو بداية الشيء وابتداءه[1] . والحداثة تُشتق من المصدر "حَدَث" ويُقال: حدث الشيء يحدث حدوثاً وأصل الكلمة "حداثة" وأحدثه هو فهو محدث وحديث وأيضاً استحدثه، ولا تُستخدم كلمة "حدث" بالضم إلا عند الإشارة إلى القدم ويأتي الحديث ليكون نقيضاً للقديم بينما يُعد الحدوث نقيضاً للقِدم.

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 ISSN: 2788-6026
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070309 Pages: 110-123

وعليه تُطلق الحداثة على ما يخالف القديم إذ إنها تُرادف الجدة والتجديد كما تُعبّر عن بداية الشيء وابتداءه فعلى سبيل المثال، "حداثة السن" كناية عن الشباب وأول العمر[2] . كذلك فإن مصطلح الحداثة الذي هو مصدر الفعل "حدث" يُستعمل للدلالة على الحديث أو الخبر[3] .

الفرع الثاني

المفهوم الاصطلاحي للحداثة

يشمل المفهوم الاصطلاحي للحداثة تعريفين رئيسيين الأول يبرز تصورات أرباب الفكر الغربي والثاني يعكس رؤية أتباع الحداثة في العالم العربي، وكما يأتي:

التعريف الاصطلاحي للحداثة لدى الغربيين

قبل الخوض في تحديد مفهوم الحداثة من الناحية الاصطلاحية يجب الإشارة إلى أنه من الصعب الإمساك بتعريف دقيق وشامل لهذا المصطلح فالأمر لا يتعلق بقصور في الجهود المبذولة لتعريفها بل بطبيعة الحداثة ذاتها التي تتسم بالتناقض والغموض.

يرى العديد من المفكرين أن الحداثة هي حركة فكرية وفلسفية تتجنب الثبات على الأصول أو الثوابت وتتسم بمرونة شديدة تجعلها تتغير وتتطور من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى فليس من الغريب أن يُوصف هذا المفهوم بأنه "الشيء الذي لا يعرف أصلاً" بسبب ما يكتنفه من تعدد دلالات ومعانٍ وعدم استقرار على تعريف ثابت[4] . الحداثة كما تظهر عند أربابها ليست مجرد مشروع فكري قائم على قوالب واضحة أو قيم ثابتة بل هي مسار متواصل يتخلله الكثير من الحيرة والشكوك ويميل أتباعها إلى استخدام الرمزية والغموض كوسيلة لتحقيق أهدافهم بسهولة ويسر وهذا ما يجعل فهمها مهمة عسيرة خاصة عندما يتعلق الأمر بوصفها فلسفياً.

ونتيجة لذلك خلص بعض الباحثين والدارسين إلى أن الحداثة ليست مفهوماً قابلاً للتحديد المطلق نظراً لطبيعتها التي تقوم أساساً على التغيير المستمر والتلون وعدم الثبات على قواعد محددة فقد أشاروا إلى أن محاولات تقديم تعريف ثابت للحداثة تواجه صعوبات جمة كونها حركة فكرية وفلسفية تنزع إلى التحرر من الأطر التقليدية والتعريفات الجامدة وبهذا المعنى يعتبر هابرماس أن الحداثة تمثل "مشروعاً لم يكتمل" إذ أنها ليست ظاهرة منتهية أو مكتملة الأركان بل عملية متواصلة لا تنفك عن التجدد والتغيير[5]. ان "الحداثة" كمفهوم فلسفي تظل صعبة الضبط والتعريف إذ إن طبيعتها تتسم بعدد من السمات العامة التي تجعلها حركة مستمرة ومعقدة، ومن أهم هذه السمات:

1. الشمولية: الحداثة ليست مجرد فكرة جزئية أو قطاعية بل هي مفهوم حضاري شامل يطال مختلف جوانب الوجود الإنساني من الفكر إلى السياسة ومن الثقافة إلى التكنولوجيا.
2. مواجهة التقليد: تتجسد الحداثة في عملية الانتقال من القديم إلى الحديث بما يتضمنه ذلك من تحول جذري في طرق التفكير ومنهجيات المعرفة ونظرات الإنسان للعالم من حوله إنها تشتمل على تحول معرفي ينقل العقل البشري من نمط إدراك تقليدي إلى آخر جديد ومتطور.
3. الجذور الأوروبية: على الرغم من أن الحداثة قد أصبحت ظاهرة عالمية إلا أن نشأتها الأولى وتطورها ارتبطا بالقارة الأوروبية. وبخلاف مفهوم "المعاصرة" إذ يمكن أن يتواجد أشخاص معاصرون ينتمون عقلياً إلى عصور سابقة فإن الحداثة في جوهرها قد تظهر في عقول وأفكار تبدو وكأنها تنتمي إلى المستقبل حتى لو عاشت في حقب قديمة.
4. العالمية: الحداثة ليست مجرد ظاهرة محلية أو إقليمية بل هي حركة كونية فرضت نفسها بالأشكال الحديثة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التغيرات الثقافية والاجتماعية في جميع أنحاء العالم.
5. النقد الذاتي والتصحيح: من أبرز سمات الحداثة قدرتها على مراجعة نفسها باستمرار فهي ليست مشروعاً جامداً بل تمتاز بالنضج التدريجي ومواجهة المشكلات التي تعترضها إنها عملية قادرة على تصحيح أخطائها وتجديد بنيتها الفكرية ولهذا السبب اعتبرها هابرماس "مشروعاً لم يكتمل"[6].

إذن تبقى محاولة ضبط مفهوم الحداثة أمراً بالغ الصعوبة والتعقيد إذ أن هذه الظاهرة تحمل بين طياتها جوانب متعددة وأبعاداً متباينة لذا فإن التعريفات المقدمة لها غالباً ما تكون توصيفية وإشارات تقريبية بدلاً من أن تكون محددة أو جامعة مانعة ومن بين هذه التعريفات:

1. رؤية مالكوم برادبري:

يشير مالكوم برادبري إلى أن تعدد الآراء حول طبيعة مصطلح الحداثة يعكس تعقيدها مؤكداً أن "هذه التسمية تحتوي على الكثير من ظلال المعنى الذي لا يُستخدم بصورة دقيقة"[7] ، إن هذا التنوع في المعاني يعكس حقيقة أن الحداثة ليست مفهوماً أحادي البعد بل هي شبكة مترابطة من الأفكار والأشكال المختلفة.

2. تعريف فلوبير:

أما الحداثي الفرنسي فلوبير فقد عرّف الحداثة بأنها ليست مجرد شكل فني أو أدبي بل ظاهرة تقود الفن نحو "ظلمات الفوضى واليأس" وبرأيه الحداثة لا تأخذ الفن إلى مراتب الإبداع والجمال بل تدفعه نحو التهلكة وهي تتجاوز مجرد التجديد والتجريب الفني لتوحي بالضبابية والغربة والتفكك مظهرةً جوانبها المربكة والمقلقة أكثر من جوانبها البناءة [7].

وهو ذات الفيلسوف الذي وصف الحداثة بصورة تعكس طبيعتها التجريبية والذاتية، قائلاً: "كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتابًا جميلاً حول لا شيء وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية[7] هذا القول يجسد النزعة الحداثية للابتعاد عن المعايير التقليدية والاتصال المباشر بالعالم الخارجي والتركيز بدلاً من ذلك على التعبير الداخلي المحض مما يبرز استقلالية العمل الفني والأدبي عن السياقات التقليدية.

3. تعريف "كالنيسكو":

كالنيسكو يرى أن الحداثة في جوهرها تقوم على ثلاث معارضات جدلية:

- معارضة للتراث: فهي تقف ضد كل ما هو قديم ومتوارث.
- معارضة للثقافة البرجوازية: الحداثة تعترض على العقلانية والنفعية التي تقوم عليها القيم البرجوازية التقليدية وكذلك تصورها لفكرة التقدم.
- معارضة لذاتها: تتسم الحداثة بانتقاد دائم لتقاليدها الخاصة وأشكال الهيمنة التي قد تنتجها[8].

هذه النظرة تشير إلى أن الحداثة ليست مجرد انفصال عن الماضي أو رفض لقيم تقليدية بل هي حركة مستمرة تتطلع دوماً إلى خلق قيم وأشكال جديدة من التعبير[9] .

4. تعريف "جود دون"

أما "جود دون"، فيضيف منظوراً مختلفاً، إذ يقول: "إن ما ينبغي أن يكون حديثاً لا يجب أن يساير أية نزعة أيديولوجية كهنوتية، سواء تبناها مجتمع في الماضي أو الحاضر أو المستقبل" [10] وهذا يعني أن الحداثة وفقاً له، ينبغي أن تبتعد عن أي إطار أيديولوجي موروث وتسعى إلى الاستقلالية التامة في التفكير والإبداع.

يقول الحداثي الغربي "جود دون" "إن ما ينبغي أن يكون حديثًا لا ينبغي أن يساير أية نزعة أيديولوجية كهنوتية، يعتنقها أي مجتمع آخر في الماضي أو الحاضر أو المستقبل" إذن، تُفهم الحداثة من منظور هؤلاء المفكرين الغربيين على أنها ظاهرة فكرية متطورة جاءت لتكون ثورة جذرية على التقاليد والأنماط السائدة، بما في ذلك التأزم العقدي والاجتماعي والتاريخي. لقد كانت الحداثة في جوهرها حركة تغييرية تهدف إلى تفكيك كل ما هو ثابت ومعتاد والسعي إلى كسر الهياكل القديمة التي لطالما شكلت أساس الفكر والمجتمع في العصور الوسطى.

قدمت الحداثة نفسها في الغرب كمشروع فكري وفلسفي شامل، ليس فقط لتجاوز القيم والأعراف التقليدية بل أيضاً لهدم الأسس التي بُنيت عليها النظم الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والثقافية. إنها تمثل محاولة مستمرة لتجاوز الثوابت، سواء كانت هذه الثوابت دينية أم دنيوية، بهدف إعادة بناء الواقع على أسس جديدة تتوافق مع روح التجديد والمراجعة المستمرة.

الفرع الثالث

أشكال الحداثة في الفكر العربي والإسلامي

عند تتبع جهود المفكرين والرواد الحداثيين، نجدهم قد اجتهدوا في تقديم تعريفات متنوعة للحداثة، محاولين وضع أطرٍ نظرية تحدد ملامحها ومقاصدها. هذه التعريفات لم تتوقف عند حدود الفهم النظري بل جاءت لتعكس رؤى عميقة تهدف إلى تأصيل مفهوم الحداثة وتوضيح ماهيتها.

1. رؤية أدونيس:

أدونيس، الذي يُعَدّ من أبرز ممثلي تيار الحداثة في البلاد العربية، يشدد على أن الفن الذي يحتاجه الجمهور العربي ليس مجرد مادة استهلاكية للتسلية أو المواساة بل هو فن يتحدى حياته اليومية ويدفعه إلى مواجهة ذاته. يقول أدونيس: "إن فن القصيدة أو المسرحية أو القصة التي يحتاج إليها الجمهور العربي ليست تلك التي تسليه أو تقدم له مادة استهلاكية، ليست تلك التي تسايره في حياته الجادة وإنما هي التي تعارض هذه الحياة، أي التي تصدمه وتخرجه من سباته، تفرغه من موروثه وتقذفه خارج نفسه، إنها التي تجابه السياسة ومؤسساتها والدين ومؤسساته والعائلة ومؤسساتها والتراث ومؤسساته وبنية المجتمع القائم كلها بجميع مظاهرها ومؤسساتها وذلك من أجل تهديمها كلها، أي من أجل خلق الإنسان العربي الجديد، فيلزمنا تحطيم الموروث والثابت، فهنا يكمن العدو الأول للثروة والإنسان"[11].

بالنسبة لأدونيس، تتطلب الحداثة من الحداثي أن يتبنى هدم كل ما هو ثابت ومستقر من مبادئ ومعتقدات. إنها دعوة واضحة للتصادم مع السائد والمألوف، بدءاً من أنظمة الأفكار وصولاً إلى أساسيات المجتمع. وهو يوضح ذلك بقوله: "فالكتابة الإبداعية هي التي تمارس تهديماً شاملاً للنظام السائد وعلاقاته، أعني نظام الأفكار"[11] . في هذا إشارة صريحة إلى أن الحداثة تعد مذهباً هداماً يسعى إلى تقويض الثوابت والأصول، في محاولة لإعادة صياغة تصور جديد للكون والحياة بشكل عام. هذا التصور يتعارض جذرياً مع تعاليم ديننا الإسلامي في كافة جوانبه. وتتخذ الحداثة أشكالاً متعددة، فهي تارة تختبئ خلف الأدب والفن وتارة أخرى تحت راية التجديد ومواكبة العصر، لكنها في جوهرها ثورة شاملة على القديم، بما يشمل الدين واللغة والشعر وحتى الأعراف والتقاليد.

ليست الحداثة كما يدعي البعض مجرد خروج من الشعر التقليدي إلى الشعر الحر، أو استبدال الفصحى بالعامية بل هي أعمق من ذلك بكثير. إنها حركة معرفية تسعى إلى زعزعة مصادر التلقي لدى المسلمين وإعادة النظر في المراجع والأدوات والقيم والمعايير الشرعية التي تشكل الأساس في العلاقة بين الإنسان والكون هدفها الأساسي تحويل مركز المعرفة من الوحي إلى العقل البشري المجرد مما يجعلها في المقام الأول مذهباً عقائدياً حتى وإن قدمت نفسها من خلال قوالب أدبية أو فنية[12] ولأنها رؤية شاملة تضع تصوراً جديداً للحياة والوجود فإن أي شخص يتبنى نهج الحداثة يتبنى معه في الوقت ذاته موقفاً فكرياً وعقائدياً يرتكز على قناعات داخلية ما يؤكد أن الحداثة ليست مجرد حركة أدبية بل هي مذهب فكري ذو أبعاد فلسفية ومعرفية عميقة.

2. رؤية محمد أركون:

عرف محمد أركون الحداثة بأنها "استراتيجية شمولية يتبعها العقل من أجل السيطرة على كل مجالات الوجود والمعرفة والممارسة عن طريق إخضاعها لمعايير الصلاحية أو عدم الصلاحية"[13]. يرى أركون ضرورة النظر إلى نتائج الحداثة نفسها والى الصراع الدائم بين الإنسان والطبيعة، من هذا المنطلق يعتبر أركون أن الحداثة عندهم تمثل حالة معرفية نتجت عن صراع الفكر الحديث مع الأفكار والعقائد القديمة، إذ تعمل على إعادة مركزية الإنسان وإبراز دوره في صياغة معارفه وقيمه بعيداً عن القوالب التقليدية.

3. رؤية طه عبد الرحمن:

عرف الدكتور طه عبد الرحمن الحداثة بأنها ممارسة لما يُعرف بالسيادات الثلاث وذلك باستخدام العلم والتقنية كأدوات رئيسية لتحقيقها، وتتمثل هذه السيادات في:

- السيادة على الطبيعة: إعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي من خلال الابتكار العلمي واستخدام التكنولوجيا.
- السيادة على المجتمع: التأثير على البُنى الاجتماعية والثقافية بهدف إعادة صياغتها بما يتناسب مع متطلبات العصر الحديث.
- السيادة على الذات: التحكم في الذات البشرية من خلال تعزيز وعي الفرد وإمكاناته، بما يمكنه من فهم دوره في الكون وتطوير أساليب جديدة للتعبير عن نفسه[5] .

4. رؤية يوسف الخال للحداثة:

يوسف الخال وهو أحد كبار الحداثيين السوريين عرف الحداثة بأنها نظرة جديدة إلى الأشياء تعتمد على الإبداع والخروج عن المألوف، فيقول: "الحداثة إبداع وخروج به على ما سلف وهي لا ترتبط بزمن وكل ما في الأمر أن جديدًا ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف"[14] . من هذا المنطلق يتضح أن الحداثة وفق رؤية الخال تتجاوز الأطر التقليدية فتدفع إلى اكتشاف آفاق جديدة تتخطى الزمن والمألوف بيد أن هذا التوجه كما يشير النص قد يحمل ضمنياً توجهاً نحو القطيعة مع القيم الدينية التي كانت تشكل ركيزة للثقافة التقليدية ما يجعل الحداثة عنده تبدو وكأنها تضع الدين وراءها بحيث تصبح رؤى الحداثة منفصلة عن الامتداد الديني والموروث الثقافي.

5. رؤية محمد عابد الجابري:

عرف محمد عابد الجابري الحداثة بأنها ليست انقطاعاً كاملاً عن التراث وإنما تطور في طريقة التعامل معه، يقول: "إن الحداثة في نظرنا لا تعني رفض التراث ولا القطيعة معه بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة أعني مواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي"[15] . وفق هذا التعريف لا ينظر الجابري إلى الحداثة كمجرد قطيعة تامة مع الماضي بل كإعادة قراءة التراث من خلال المناهج النقدية التي تستجيب لمتطلبات العصر ومن خلال هذه الرؤية النقدية يصبح التراث الإسلامي

منتجاً جديداً يحمل اسمه فقط بينما يتغير مضمونه ليعكس متطلبات الحداثة. وقد أوضح الجابري ذلك صراحة في موضع آخر بقوله: "إن الحداثة في جوهرها ثورة على التراث القديم، تراث الماضي والحاضر من أجل خلق تراث جديد"[16] .

6. رؤية أدوار الخراط للحداثة:

عرف أدوار الخراط وهو أحد رموز الحداثة في مصر، الحداثة بأنها نفي للتقاليد الراسخة ونقيض لها يقول الخراط: "التعريف الأول للحداثة أنها نفي وأنها نقيض نظام من التقاليد التي رسخت الحداثة تنطوي إذن على قلق دائم لا يعفو عليه الزمن تنطوي على نوع من الهدم المستمر في الزمن دون أن يتحول إلى بنية ثابتة، تنطوي على سؤال مفتوح، لا تأتي السنوات بإجابة عنه وهذه هي القيمة الإيجابية التي تنطوي على النفي وتجاوزه في نفس واحد"[9] . بهذا يُبرز الخراط الحداثة كحالة ديناميكية من الهدم المستمر دون الاستقرار على بنية ثابتة الحداثة بالنسبة له ليست نظاماً قائماً على القيم المستقرة بل هي حالة مستمرة من التساؤل والبحث لا تقبل التوقف أو الحلول القطعية بل تُبقي الأبواب مفتوحة للنقد والمراجعة.

وفي تعقيبه على هذه الطبيعة المناقضة يضيف: "الحداثة تتحدى نظم القيم الراسخة والسائدة في كل العصور لا لإقامة نظام قيمي جديد بل بحثاً عن نظام قيمي شكلي ومضموني معاً مقذوف به - دائماً - في المستقبل نظام يفلت من التقنين باستمرار، لأنه دائمًا موضع شك ودائمًا موضع سؤال ودائماً متناقض في داخله ومتناقض مع إطاره الاجتماعي ودائمًا قابل للمراجعة بلا انتهاء إلى حل قطعي" [16] من هذا الطرح يتضح أن الحداثة عند الخراط تقوم على النقيض والضدية، فهي ثورة دائمة ضد المبادئ الثابتة والأفكار المستقرة. الحداثة إذن هي أرض الضياع تيه دون علامات تيه جسده أدونيس في خلق مهيار لا أسلاف له وفي خطواته جذوره كل خطوة تصنع جذراً منه يبدأ النمو الحداثة صراع بين الماهية والوجود، فيه يصبح الوجود سابقا على الماهية بمدلول معرفي كامل لافتي بحت"[9] .

مما سبق يتضح أن الحداثة لا تتعلق بالأشكال الأدبية والفنية الظاهرة فقط كما يدعون بل هي في الحقيقة مذهب فكري وعقيدة جديدة لها تصورها الخاص عن الإله والكون والإنسان والحياة، هدفهم الأول والأخير هدم الثوابت التي يهدف إلى هدم الدين كله من قبلها لذا فقد وجدنا كثيرًا من رواد الفكر الإسلامي قد اجتهدوا في توصيفها وتعريفها. ونتيجة لما سبق يكون الحداثي: هو ذلكم الشخص الذي يأخذ بالفكر الحداثي في فكره ومناهجه ودراساته التاريخية والمعاصرة متبعا منواله وخطاه ومتجها نحو تطبيقه في حياته اليومية.

المبحث الثاني

الآثار العقدية والأخلاقية للحداثة في الفكر الإسلامي

كما أنَّ مفهوم الحداثة في الفكر الإسلامي يُثير تساؤلات عدّة حول ماهيتها وأبعادها فإنَّ تأثيراتها أيضًا تطرح تحدّيات لا تقل أهمية خاصة عندما يتعلّق الأمر بجانب العقيدة والأخلاق ومع محاولة الفكر الحداثي إيجاد موقعٍ له في النسيج الثقافي والعقدي الإسلامي ظهر العديد من الآثار والتبعات التي لا يمكن إغفالها من هنا سيتناول هذا تحليل هذه الآثار من زوايا مختلفة مُسلِّطة الضوء على الأبعاد العقدية والأخلاقية للحداثة في الفكر الإسلامي وذلك من خلال استعراض الجوانب التالية:

أولاً: الآثار العقدية للحداثة.
ثانياً: الآثار الأخلاقية للحداثة.
ثالثاً: الآثار الاجتماعية والثقافية.

الفرع الأول

الآثار العقدية للحداثة

على الرغم من أن للحداثة تأثيرات إيجابية في العديد من جوانب الحياة لا سيما في المجال الأدبي والاجتماعي وتعزيز المفاهيم الإنسانية إلا أنها أحدثت آثارًا سلبية عميقة امتدت إلى مختلف الأصعدة وبخاصة الصعيد العقدي الذي يمس علاقة الإنسان بالمعبود وإيمانه بما أنزل الله.

فالحداثة بطبيعتها تميل إلى إخضاع المفاهيم الدينية لمنهجية عقلانية صارمة تعتمد على تسمية الأشياء بمسمياتها العلمية وتفسير الظواهر بمنطق مادي مطلق دون الاعتراف بالخوارق أو الغيبيات، وهذا المنهج يؤدي إلى تفكيك البعد الروحي للعلاقة بين الإنسان والخالق إذ إن هذه العلاقة تقوم على الإيمان بالغيب وهو أمر لا يمكن إخضاعه للمنطق التجريبي أو العمليات الحسابية لأن الله تعالى لا يُدرَك بالحواس المادية بل يُؤمن به عن طريق اليقين القلبي والعقلي المستنير بالوحي.

من هذا المنطلق يمكن تلخيص الآثار العقدية للحداثة في مجموعة من المحاور الأساسية والتي سيتم استعراضها على النحو الاتي:

الأثر الأول: انتشار الإلحاد وتفاقمه

شهدت العقود الأخيرة انتشارًا متزايدًا للإلحاد الذي أصبح أشد خطورة وأوسع نطاقًا مما كان عليه سابقًا وذلك نتيجة تغلغل الفكر الحداثي داخل الصحف والمؤسسات بمختلف أشكالها ومسمياتها إذ يدعو هذا الفكر إلى التمرد على الثوابت والموروثات وفي مقدمتها العقيدة الإسلامية التي ينظر إليها الحداثيون باعتبارها جزءًا من التراث الذي ينبغي هدمه وإزالته.

إن هذا التوسع الإلحادي لا يعد مجرد ظاهرة فكرية عابرة بل هو مؤشر خطير يحمل في طياته تهديدًا حقيقيًا للمجتمعات الإسلامية إذ يؤدي الإلحاد إلى تفكيك القيم الأخلاقية ونشر الانحلال وطمس الشعور بالمسؤولية الدينية إذ يترتب على إنكار وجود الله غياب الوازع الذي يمنع الإنسان من الوقوع في المحرمات والجرائم بل ويعيق العودة إلى التوبة والاستغفار إذ يُغرس في نفوس الشباب الاعتقاد بأنهم ليسوا محاسبين أمام إله يعلم السر وأخفى ولا وجود لجنة أو نار وبالتالي تتحلل القيم ويصبح الانجراف خلف الشهوات والأهواء أمرًا سهلاً. وبذلك يكون هذا التوجه الفكري بمثابة أداة يستخدمها أعداء الإسلام للسيطرة على الشعوب الإسلامية إذ يؤدي الانفصال عن العقيدة إلى تسهيل عملية الاستعمار الفكري والثقافي.

يُعرَّف الإلحاد في اللغة بأنه الميل عن القصد والعدول عنه وقيل: الميل عن الحق والانحراف عنه بمختلف الاعتقادات. ويقال: "لحد في شهادته يلحد لحدًا" أي أثِم و"لحد إليه بلسانه" أي مال. وفي قوله تعالى: "لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ"[17] قال الفراء: قرئت "يَلْحَدون" و"يُلْحِدون"، أي يميلون ويعترضون. كما قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا"[18] أي يجورون ويعدلون عن الحق. وقال الزجاج في تفسير الإلحاد: "هو الشك في الله"، كما ورد في الحديث: "احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه" أي ظلم وعدوان. وأصل الإلحاد هو الميل والعدول عن الشيء[1] .

اما اصطلاحًا فالإلحاد هو إنكار وجود الله أو إنكار وجود أي رب خالق متصرف في هذا الكون إذ يؤمن الملاحدة بأن الطبيعة والمادة هما أصل كل شيء وأن جميع الظواهر الكونية والإنسانية حدثت بفعل المصادفة أو قوانين المادة الذاتية. ويُقسَّم الإلحاد إلى نوعين:

- الإلحاد الكوسمولوجي: وهو الذي يُفسِّر الكون وتكوينه العام من غير الحاجة إلى افتراض كائن واجب الوجود يتجاوز العقل والتجربة.
- الإلحاد الوجودي: وهو الذي يُفسِّر الإنسان كوعي وفكر ووجود مستقل، دون الحاجة إلى افتراض كائن مفارق ومتعالٍ[19] .

وجاء في المعجم الفلسفي توضيح أكثر دقة لمصطلح الإلحاد إذ قال صاحبه إن أفضل تحديد لهذا المفهوم هو "إنكار وجود الله" وليس مجرد إنكار بعض صفاته أو رفض معتقد ديني معين وبذلك يكون الفلاسفة الماديون والدهريون ملاحدة لأنهم أنكروا حاجة العالم إلى خالق واعتبروا أن المادة هي العلة الأولى للحياة والفكر والحركة[8] . الإلحاد إذن هو إنكار وجود الله أو نفي وجود أي خالق لهذا الكون متصرف في شؤونه بحكمته وإرادته ومدبر لأحداثه بعلمه ومشيئته وهو فكر يستند إلى رفض الإيمان بما هو غير محسوس أو غير مشاهد مما يدفع معتنقيه إلى الاعتقاد بأن كل ما يحدث في الكون إنما هو محض صدفة أو نتيجة حتمية لطبيعة المادة وقوانينها دون الحاجة إلى افتراض وجود قوة عليا مدبرة بل يذهب بعضهم إلى اعتبار الظواهر الكونية والموجودات بأسرها مجرد تجليات للتطور الذاتي للمادة نفسها، دون تدخل من أي كيان متعالٍ.

وقد كان لانتشار الفكر الحداثي أثر بالغ في ازدياد النزعة الإلحادية في العالمين العربي والإسلامي إذ تسللت أفكار هذا التيار إلى عقول الناشئة والشباب ولا سيما في مراحل التكوين الفكري الأولى حين يكون وعيهم لا يزال في طور التشكل ولم يبلغ بعد النضج العلمي الكافي لمواجهة الشبهات والتمييز بين الحق والباطل فالحداثيون عبر مؤلفاتهم وأطروحاتهم قدموا الإلحاد في قوالب فكرية وأدبية جذابة مستخدمين أساليب براقة وخطابًا مغريًا يفتقر إلى الأسس المنطقية السليمة مما أدى إلى وقوع الكثير من الشباب ضعيفي الثقافة والمعرفة في شراك هذا الفك، ظانين أنهم بذلك ينفتحون على الحقيقة والرؤية النقدية العميقة. لقد ساهمت عدة عوامل في تفشي ظاهرة الإلحاد في المجتمعات الإسلامية، من أهمها:

1. التأثر برموز الفكر الحداثي: إذ أدى انتشار مؤلفات رواد الفكر الحداثي إلى ترويج أفكار إلحادية في أوساط الشباب خاصة في مراحل التكوين الفكري الأولى فعند الاطلاع على هذه الكتب دون نضج علمي كافٍ يقع الكثير من الشباب في شراك هذه الأفكار المضللة.
2. ضعف التربية الدينية: فالشباب الذين ينشؤون في بيئة ضعيفة دينيًا يكونون أكثر عرضة للانحراف الفكري لا سيما إذا اختلطوا بملحدين يمتلكون القدرة على التأثير ببلاغتهم وحججهم الواهية.

3. الانبهار بالمظاهر الغربية: إذ يُصوَّر الإلحاد في بعض الدوائر الثقافية على أنه قمة التقدم والتحرر الفكري مما يجعل الشباب ينجرون وراءه دون إدراك لحقيقته وآثاره المدمرة [20].

قد انعكس الفكر الحداثي في مجالات الأدب والثقافة، إذ أصبح الإلحاد والتشكيك في الثوابت الدينية موضوعًا شائعًا في كتابات بعض الأدباء والمفكرين سواء في النثر أو الشعر وقد ساهمت هذه الأعمال في تقديم الإلحاد والكفر والردة كأفكار مستساغة ومقبولة إذ عرضت هذه القضايا للجمهور بعبارات تبدو بسيطة وسلسة، لكنها تحمل في طياتها تهوينًا من شأن العقيدة والدين وتم تصوير هذه المفاهيم على أنها رموز للتحرر الفكري والرقي الثقافي ووسائل للخروج من ظلمات التخلف إلى نور الحداثة. إن خطورة هذا الطرح تكمن في أنه لا يُقدَّم باعتباره تمردًا على الدين فقط بل يروج له على أنه قمة الثقافة والتنوير، إذ يُصوَّر الإلحاد على أنه دليل على التحضر والحداثة، بينما يُنظر إلى التدين على أنه انغلاق ورجعية. ومن الأمثلة البارزة على ذلك:

1. أدونيس: يساوي بين الله والشيطان ويشبه الله بالجدار في قوله: "لا الله أختار ولا الشيطان، كلاهما جدار، كلاهما يغلق لي عيني، هل أبدل الجدار بالجدار"[21] .
2. نزار قباني: يعبر عن إلحاد واضح في قوله: "ماذا أعطيك أجبني؟ قلقي؟ إلحادي؟ عصياني؟ ويقول: من بعد موت الله مشنوقًا على باب المدينة، لم تبقَ للصلوات قيمة، لم يبقَ للإيمان أو للكفر قيمة فقد وسم نفسه بكل استهانة بالقلق والإلحاد والغثيان [22].
3. محمود درويش: يعبر عن الكفر والإلحاد بقوله: يوم كان الإله يجلد عبده، قلت يا ناس نكفر[23] .
4. يوسف الخال: يعلن إنكاره التام لوجود الله بقوله: "لا نور، لا ظلام، لا إله"[24] .

تكمن خطورة هذا الفكر الحداثي في كونه أحد أكبر التيارات التي تدعو إلى الإلحاد الصريح، مستغلاً مظاهر الثقافة والأدب والفكر الحر كوسائل لنشر التشكيك في الدين وقد أدى ذلك إلى ظهور جيل جديد من الشباب الذين تأثروا بهذا الفكر إذ باتوا يرون الدين عائقًا أمام رغباتهم مما جعلهم عرضة للضياع والانحراف. والأشد خطورة أن هذه الأفكار لا تبقى حكرًا على بعض المثقفين بل تتسلل تدريجيًا إلى العامة، خصوصًا الشباب في الجامعات ووسائل الإعلام مما يستدعي ضرورة التصدي لهذه الظاهرة بأساليب علمية وفكرية قائمة على ترسيخ العقيدة الصحيحة وتعزيز القيم الدينية في المجتمع الإسلامي.

الأثر الثاني: التلاعب بالمصطلحات العقدية وإفراغها من مضمونها الأصلي

من أخطر ما أحدثه الفكر الحداثي في مجال العقيدة الإسلامية هو التلاعب بالمصطلحات الدينية وإخراجها عن سياقها الأصلي مما يؤدي إلى تشويه المفاهيم العقدية وإضعاف أثرها في نفوس المسلمين فبدلًا من أن تُستخدم هذه المصطلحات بما تحمله من دلالات مقدسة مستمدة من النصوص الشرعية عمد الحداثيون إلى تحريفها وتوظيفها في سياقات هزلية أو مسيئة ما يؤدي إلى تشويه العقيدة وطمس معالمها الأصيلة في الوعي الجمعي. إضافة إلى ذلك عمدوا إلى استخدام مصطلحات عقدية مقتبسة من الديانتين اليهودية والنصرانية مثل "الخطيئة" و"الخلاص" و"الصليب" في سياقات لا تتناسب مع المفاهيم الإسلامية محاولين بذلك إدخال أفكار غريبة إلى بنية العقيدة الإسلامية وإحداث نوع من الخلط بين المعتقدات الدينية المختلفة مما يساهم في نشر البلبلة الفكرية وإضعاف الهوية العقدية للمسلمين.

إن هذا النهج في التعامل مع المصطلحات الدينية لا يُعدّ مجرد استخدام لغوي عابر بل هو استراتيجية ممنهجة تستهدف إعادة تشكيل المفاهيم الدينية وفق رؤى دخيلة تتنافى مع العقيدة الإسلامية الصافية وهو ما يجعل من الضروري التصدي لهذه المحاولات بالحفاظ على معاني المصطلحات الشرعية وتوضيح دلالاتها الصحيحة ونشر الوعي بأثر هذا التلاعب على الفكر الإسلامي والمجتمع المسلم. لقد كان للفكر الحداثي أثر عميق في محاولة إعادة تفسير المصطلحات العقدية الإسلامية وفق تأويلات تتعارض مع معناها الأصلي بل وتخرجها عن مقاصدها الشرعية مستخدمًا أساليب أدبية وفكرية منمقة لتمرير هذا التحريف فيما يلي بعض الأمثلة من الأدب والشعر الحداثي التي تعكس هذا التلاعب بالمفاهيم الإسلامية:

1. وصف الملائكة بأوصاف مسيئة

يُعدّ أحد أبرز مظاهر التلاعب بالمصطلحات الدينية في الأدب الحداثي هو تشويه صورة الملائكة، إما بالسخرية منهم أو بإضفاء صفات سلبية عليهم، نجد ان نزار قباني في إحدى قصائده يصف الملائكة بأنهم مجرد "حرس قُيصر" ويجعلهم بلا قداسة، قائلًا: "حين كنا في الكتاتيب صغارًا، حقنونا بسخيف القول والقول المكررْ، حشروا رؤوسنا عنوةً بجنةٍ ونارٍ وملائكةٍ تطيرُ وأخرى تحرسُ القيصرْ"(22)[22] هنا يتم تصوير الملائكة وكأنها مجرد رموز سلطوية وليسوا عبادًا مكرمين عند الله وهو خروج واضح عن المفهوم الإسلامي لوجودهم.

كما نجد ان أدونيس في شعره يتجاوز ذلك ليضع الملائكة في مقارنة غير لائقة مع الشيطان، قائلًا: "لا الله اختار ولا الشيطان، كلاهما جدار، كلاهما يُغلق لي عيني، هل أبدل الجدار بالجدار؟"[21] هذه العبارة تسوي بين الله والشيطان وتمحو الفارق الجوهري بين الخير والشر وهو أحد أساليب الفكر الحداثي في تقويض المفاهيم العقدية الراسخة.

2. تحريف مفهوم ملك الموت

يُعدّ ملك الموت أحد العناصر العقدية المركزية في الإسلام، إذ إنه المكلف بقبض الأرواح بأمر الله ولكن الحداثيين لم يترددوا في تشويه صورته: في بعض النصوص الأدبية الحداثية يتم تصوير ملك الموت بأنه "ثعلب ينقض على فريسته". هذا التشبيه يُخرج فكرة قبض الروح من إطارها الإيماني الذي يرتبط بحكمة الله ورحمته بعدله ليصورها كفعل وحشي أو عشوائي مما يغير دلالتها في الأذهان.

3. استخدام مصطلحات عقدية يهودية ونصرانية في سياق إسلامي ومن أبرز مظاهر التلاعب بالمصطلحات العقدية الإسلامية هو إدخال مصطلحات مستمدة من العقائد اليهودية والنصرانية ومحاولة فرضها على الفكر الإسلامي، مثل: "الخطيئة" و"الخلاص" و"الصليب"

في الفكر المسيحي "الخطيئة" مرتبطة بمفهوم "الخطيئة الأصلية" و"الخلاص" متصل بالمسيح عليه السلام و"الصليب" رمز للتضحية لكن بعض الحداثيين حاولوا إسقاط هذه المفاهيم على الإسلام مما يغير في أصل العقيدة الإسلامية التي لا تؤمن بالخطيئة الموروثة بل ترى أن كل إنسان مسؤول عن أفعاله دون تحميله ذنب غيره. محمود درويش يستخدم لغة مسيحية لطرح أفكار تمس العقيدة الإسلامية، قائلًا: "يوم كان الإله يجلد عبده، قلت يا ناس نكفر"[23] ، هنا يتم تقديم صورة مغلوطة عن الله تعالى - حاشاه - وكأنه يمارس القمع والظلم وهو ما ينافي تمامًا الصورة الإسلامية التي تقوم على العدل والرحمة الإلهية.

4. تقويض مفهوم الإيمان بالله

يوسف الخال يعلن الإلحاد صراحة في عبارته: "لا نور لا ظلام لا إله" هذه العبارة ليست فقط رفضًا للإيمان، لكنها أيضًا محاولة لإعادة تعريف مفاهيم النور والظلام والإله، بحيث تُفقد كل دلالاتها الدينية.

الأثر الثالث: تمجيد الفرق الباطنية وتشويه صورة أهل السنة والجماعة

من أبرز آثار الفكر الحداثي على العقيدة الإسلامية قيام الحداثيين بتمجيد الفرق الباطنية وإظهارها على أنها النموذج الأكثر "تنويرًا" في التاريخ الإسلامي في مقابل تصوير أهل السنة والجماعة - الذين يمثلون الاتجاه الإسلامي الصحيح - بأنهم تيار تقليدي متحجر غير قادر على مواكبة العصر. وقد اتبع الحداثيون في هذا المنهج أسلوبًا خطيرًا يتمثل في إعادة قراءة التاريخ الإسلامي بشكل انتقائي إذ يتجاهلون الحقائق الواضحة ويبرزون كل ما هو مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة وكأنه الصورة المثالية للفكر الإسلامي.

فوفقًا لرؤيتهم فإن الفرق الباطنية مثل الإسماعيلية والقرامطة والباطنية الصوفية وبعض التيارات الفلسفية المتأثرة بالفكر اليوناني هي التي قدّمت الإسلام بصورته "الحداثية" لأنها ثارت على الثوابت الدينية وأعادت "تفسير" النصوص الدينية بطرق تناسب توجهاتهم العقلانية والتأويلية. ولم يكتفوا بذلك بل قدموا شخصيات من هذه الفرق على أنهم رموز للتحرر الفكري والبحث عن "الحقيقة المطلقة" بينما يتم تصوير العلماء والمفكرين الذين دافعوا عن العقيدة الصحيحة بأنهم متعصبون أو مغلقو الأفق.

وهذا التوجّه الحداثي يمثل تحريفًا خطيرًا للحقيقة التاريخية لأنه لا ينطلق من دراسة علمية موضوعية بل هو في حقيقته ترويج لأجندات فكرية تتعارض مع أصول العقيدة الإسلامية فالكثير من هذه الفرق الباطنية كان لها ارتباطات سياسية وعقدية منحرفة وقامت بنشر أفكار تتعارض مع التوحيد الإسلامي الصافي ومع ذلك يتم الترويج لها اليوم بوصفها رموزًا للتحرر والحداثة، ما يؤدي إلى تلبيس الحقائق على الأجيال الناشئة وتشويه فهمهم الصحيح للعقيدة.

الأثر الرابع: تشويه التاريخ الإسلامي والطعن في الفرق والمذاهب الإسلامية الصحيحة

لم يكتف الحداثيون بتمجيد الفرق الباطنية بل سعوا كذلك إلى تشويه صورة الفرق والمذاهب الإسلامية الصحيحة، من خلال إعادة كتابة تاريخها بطريقة منحازة تفتقر إلى الموضوعية والمنهجية العلمية وقد تبنوا في ذلك أسلوب المستشرقين الذين درسوا الإسلام بعيون غربية منحازة، إذ ركزوا على تضخيم الخلافات الفقهية والعقدية وتصويرها على أنها صراعات سياسية محضة، بدلًا من كونها اجتهادات دينية طبيعية في إطار العقيدة الإسلامية.

فعند تناولهم لتاريخ المذاهب الإسلامية، يحرصون على عرض آرائها الكلامية ومواقف مؤسسيها بطريقة مشوهة، مستخدمين أساليب توحي للقارئ بأن هذه المذاهب قد بنيت على أساس من الصراع والخلاف وليس على أسس علمية رصينة قائمة على الاجتهاد الشرعي ونتيجة لهذا المنهج المغرض، يتم الترويج لفكرة أن الخلافات العقدية داخل الإسلام هي دليل على عدم تماسكه في حين أن

الحقيقة الثابتة تؤكد أن هذه الخلافات كانت في إطار البحث عن الحقيقة ولم تكن سببًا في تقويض العقيدة الصحيحة. وهكذا يتضح أن الهدف من هذا التشويه الممنهج هو خلق حالة من الشك لدى المسلمين تجاه تاريخهم وتجاه علماء الأمة مما يسهل تمرير الأفكار الحداثية التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة.

الأثر الخامس: الترويج لمبدأ الأنسنة واستبدال القيم السماوية بالقيم الوضعية

ومن أخطر مظاهر الفكر الحداثي هو تبنيهم لفكرة "الأنسنة" (Humanism)، التي تقوم على جعل الإنسان هو المرجع الوحيد لكل القيم والمعايير، بدلًا من الإيمان بأن الله هو المصدر الأعلى للتشريع والتوجيه. وبهذا، يتم استبدال القيم الدينية السماوية بالقيم الوضعية البشرية، إذ يتحول الإنسان من كونه عبدًا خاضعًا لله يتلقى عنه الشرائع، إلى كونه مشرّعًا لنفسه، يضع القوانين وفق رغباته الشخصية ومصالحه الدنيوية. وهذا الاتجاه يُعتبر قلبًا جذريًا للمفاهيم الإسلامية إذ إنه يُحوّل مركزية التشريع من الله إلى الإنسان ما يؤدي إلى إلغاء فكرة العبودية لله واستبدالها بفكرة "السيادة المطلقة للإنسان"، ووفقًا لهذه الرؤية فإن كل شيء في الوجود يجب أن يُقاس بمقياس الإنسان ورغباته فالدين والأخلاق والدولة والقانون والتاريخ والفن والأدب وحتى الطبيعة والكون كلها يجب أن تخضع لرؤية الإنسان الفرد وليس لمعيار إلهي مطلق.

وقد عبّر عن هذه الفكرة الفيلسوف الحداثي السيد صدر الدين القبانجي في كتابه الأسس الفلسفية للحداثة، إذ أشار إلى أن النزعة الحداثية تقوم على "جعل الذات الإنسانية مركزًا ومحورًا لتفكيرها، بحيث يصبح الإنسان هو المرجع النهائي لكل أشكال المعرفة ولكل المواقف والقرارات". ووفقًا لهذا المنطق، لا توجد سلطة فوق الإنسان ولا حقيقة إلا التي يدركها بعقله ولا قيمة أخلاقية إلا ما يراه الإنسان نافعًا له مما يعني عمليًا إلغاء كل المفاهيم الدينية التي تستند إلى الوحي الإلهي [25].

الفرع الثاني

الآثار الأخلاقية للحداثة

الأثر الاول: طغيان مبدأ المصلحة الشخصية والمادية على القيم الإنسانية

أحد أكثر الأضرار الجذرية التي خلفها الفكر الحداثي هو طغيان المصلحة الشخصية على المبادئ الأخلاقية إذ باتت القيم الإنسانية تُقيَّم وفقًا لمنطق الربح والخسارة وليس بناءً على الأخلاق والتعاليم الدينية التي تحث على الرحمة والتعاون والإيثار ونتيجة لذلك أصبحت العلاقات التراحمية والمبنية على القيم الأخلاقية النبيلة تتراجع أمام مبدأ الميكافيلية القائل بأن "الغاية تبرر الوسيلة" مما أدى إلى تحول المجتمع إلى ساحة من التنافس غير الأخلاقي إذ يمكن تبرير أي فعل، بغض النظر عن مدى فساده أو ظلمه، طالما أنه يحقق المنفعة لصاحبه. لقد انعكس هذا التحول في مختلف مجالات الحياة، فأصبحت الصداقات قائمة على المصالح والزواج يُنظر إليه كصفقة والعمل يُدار بروح استغلالية بحتة مما أدى إلى تفشي الأنانية وتحلل قيم الأمانة والنزاهة والإيثار.

وقد تحدث الفيلسوف الفرنسي مارشال بيرمان عن هذا الأثر في كتابه حداثة التخلف مشيرًا إلى أن القيم في المجتمعات الحداثية تحولت إلى مجرد "سلع تباع وتشترى" فالشرف والكرامة والأمانة لم تعد فضائل تُحترم لذاتها بل أصبحت تخضع لمعايير السوق وتُستخدم لتحقيق مكاسب شخصية"[26] . ومن هنا فإن أي نمط من السلوك الإنساني يمكن أن يصبح مشروعًا أخلاقيًا بمجرد أن يكون له عائد اقتصادي، حتى لو كان هذا السلوك غير مشروع أو غير أخلاقي في الأصل.

الأثر الثاني: إفراغ الساحة الفكرية لصالح رموز الفكر الحداثي

من الوسائل الخطيرة التي انتهجها الفكر الحداثي في تحقيق هيمنته الفكرية هو العمل على إفراغ الساحة الفكرية من العلماء والمفكرين الإسلاميين المعتدلين وإفساح المجال لرموز الفكر الحداثي الذين ينشرون أفكارهم بسهولة عبر وسائل الإعلام والمنابر الثقافية والمؤتمرات الدولية بينما يتم التضييق على العلماء الربانيين وأصحاب الفكر الإسلامي المعتدل.

لقد تم تهميش كبار علماء الإسلام وعلى رأسهم علماء الأزهر الشريف ممن يحملون فكرًا نيرًا متفتحًا قائمًا على الاعتدال والوسطية في حين تم إعطاء الحرية المطلقة لرموز الحداثة في نشر أفكارهم التي تحمل الكثير من الانحرافات العقدية والفكرية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعدى إلى فرض رقابة مشددة على الكتب الإسلامية والتدخل في محتواها بالحذف والتغيير في مقابل إفساح المجال واسعًا لنشر المؤلفات الحداثية التي تتضمن التشكيك في العقيدة الإسلامية.

نتيجة لذلك ظهر على الساحة الفكرية جيل من الشخصيات الإعلامية التي لا تمتلك أي خلفية علمية حقيقية لكنها تتحدث في قضايا العقيدة والشريعة مما أدى إلى نشر الكثير من المغالطات والانحرافات الفكرية بين الشباب الذين باتوا يرون أن رموز الحداثة هم أصحاب العلم الحقيقي، بينما تم إقصاء العلماء الحقيقيين إلى هامش الحياة الفكرية.

الأثر الثالث: تشويه العقيدة من خلال تفسيرات تفكيكية حداثية

لم تقتصر محاولات الحداثيين على نشر أفكارهم بل سعوا إلى تفكيك العقيدة الإسلامية من الداخل عبر إعادة تفسير النصوص الدينية بمنهجية التفكيك الحداثي التي تقوم على تجزئة النصوص الدينية وتأويلها تأويلات تتناقض مع معانيها الأصلية.

ومن أبرز مظاهر هذا التشويه:

- عرض تفسيرات شاذة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحيث يتم تصوير النصوص العقدية على أنها تحمل معاني غامضة أو متناقضة.
- الطعن في أئمة الإسلام الكبار، مثل الإمام البخاري والإمام أحمد والإمام الشافعي واتهامهم بالتحيز في نقل الحديث والفقه، في محاولة لهدم الموثوقية العلمية التي تتمتع بها مصادر الشريعة الإسلامية.
- الاستناد إلى شبهات المستشرقين التي تهدف إلى إضعاف الإيمان بالنصوص الدينية من خلال إعادة طرحها بصياغة جديدة تبدو وكأنها "تساؤلات علمية" بينما هي في جوهرها تشكيك متعمد في العقيدة.

الفرع الثالث

الآثار الاجتماعية والثقافية للحداثة

الأثر الاول: انهيار منظومة القيم الأخلاقية وانتشار العدمية

ساهم الفكر الحداثي في تدمير القيم الأخلاقية والمثل العليا لدى الشباب من خلال التشكيك في أهمية الأخلاق واعتبارها مجرد قواعد قديمة لم تعد صالحة للعصر الحديث. فالحداثة تدعو إلى تحطيم التقاليد والأعراف دون تقديم بديل واضح، ما أدى إلى حالة من الفراغ القيمي، إذ فقد الكثير من الشباب سمات الشخصية الإسلامية وباتوا يعيشون في حالة من الضياع الأخلاقي والفكري، دون أي مرجعية ثابتة تضبط سلوكهم.

الأثر الثاني: صراع المتناقضات داخل الفكر الحداثي

يتسم الفكر الحداثي بتناقضاته الجذرية، فهو يدّعي من جهة الدفاع عن الحرية والتعددية الفكرية، لكنه من جهة أخرى يرفض الاعتراف بأي حقيقة مطلقة مما يجعله غير قادر على تقديم رؤية فكرية متماسكة. وقد أشار الدكتور عبد العزيز حمودة إلى أن الحداثة تعاني من "تضارب في الأفكار وتناقض في الرؤى وتعقيد في الطرح" وهو ما جعلها غير قادرة على تقديم حلول حقيقية للمشاكل المجتمعية) [27] ويضيف في كتابه المرايا المقعرة أن التناقض هو السمة الأبرز لرواد الفكر الحداثي[28] .

وقد رأينا كيف وضح لكل ذي عينين أن الهدف الأسمى الذي يسعى إليه هؤلاء الحداثيون هو نزع القداسة عن جميع النصوص دينية كانت أو غير دينية ثم إعمال التسوية بينها وإخضاعها لبعض العمليات اللغوية الشكلية الآلية التي تلغي حتى وجود المعنى العلماني في النص والمعنى الصحيح الشرعي من باب أولى ومن ثمَّ يُمكن أن يُفسر النص بالشيء ونقيضه ولا يكون هناك أي تفسير ملزما باعتبار أن عملية التأويل عملية بشرية يقوم بها القارئ للنص وفق آلياته ومعتقداته، فالنص عند السلفي إطار ومرجع وعند العلماني غطاء وسند وهنا تظهر كمية المتناقضات عندهم[29] لذا فإن الفكر الحداثي لم يثمر شيئا سوى التضارب في الأفكار والتناقض في الرؤى والتعقيد في الأقوال.

الخاتمة

من خلال ما تقدم توصلنا إلى النتائج التالية:

1. الحداثة ليست مجرد تيار فكري بل هي منظومة فكرية شاملة تؤثر على العقيدة والأخلاق الإسلامية إذ ان الحداثة لا تقتصر على الجوانب الثقافية أو الفلسفية فقط بل تمتد إلى المجال العقدي إذ تسعى إلى إعادة تشكيل المفاهيم الدينية وفق رؤية عقلانية مادية تتنافى مع الأصول الإسلامية.

2. انتشار النزعة العقلانية المطلقة والتشكيك في الغيبيات أدى إلى تفشي الإلحاد في بعض الأوساط الإسلامية إذ تأثرت العقيدة الإسلامية بالنزعة الحداثية التي تعلي من شأن العقل على حساب النصوص الشرعية مما أدى إلى التشكيك في المسلمات العقدية مثل الإيمان بالله والبعث واليوم الآخر.
3. التلاعب بالمصطلحات الدينية وإعادة تأويلها أضعف من رسوخ العقيدة في أذهان المسلمين فعمد بعض المفكرين الحداثيين إلى إعادة تفسير المفاهيم الإسلامية مثل الخطيئة والخلاص والجنة والنار والصراط المستقيم مما أدى إلى تشويش المفاهيم العقدية الصحيحة.
4. الحداثة أدت إلى طمس الفوارق بين المفاهيم الإسلامية والغربية مما أدى إلى حدوث اضطراب فكري في المجتمعات الإسلامية فنتيجة لتأثير الحداثة أصبح هناك خلط بين القيم الإسلامية والأفكار الغربية مما أدى إلى تشويه الهوية الإسلامية والتقليل من أهمية القيم الدينية في المجتمع.

التوصيات

1. تعزيز الوعي العقدي لدى المسلمين وخاصة الشباب، لحمايتهم من تأثيرات الفكر الحداثي المنحرف.
2. إعادة بناء الخطاب الإسلامي بحيث يكون أكثر قدرة على مواجهة الفكر الحداثي بالحجة والعلم، دون الوقوع في الجمود أو الانغلاق الفكري.
3. تشجيع الدراسات العلمية التي تتناول الحداثة من منظور إسلامي متزن، لتقديم رؤية واضحة حول كيفية التعامل مع تحدياتها.
4. دعم الإعلام الإسلامي الهادف وتوفير منصات فكرية تناقش القضايا العقدية والأخلاقية من منظور علمي مدروس.

المصادر

[1] كتاب العين: الخليل بن احمد الفراهيدي، مادة "حدث"، ص 354. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، مادة "حدث"، ج 2. المعجم الوسيط، المجمع اللغوي العربي، ج 1.
[2] تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد الزبيدي، ط1. دار الفكر، بيروت، 1414هـ. ج 3.
[3] محيط المحيط، بستاني، بطرس بن بولس، .(1977) محيط المحيط: قاموس مطول اللغة العربية .مكتبة لبنان، بيروت.
[4] مقاربات حوارية في الأصول المعرفية: لعبد الغني بارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة2005م.
[5] عبد الرحمن، طه .(2005) .روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية .المركز الثقافي العربي.
[6] د. سعيد عبد اللطيف فودة، ط 2، دار الذخائر، بيروت، 2015م.
[7] جيمس ماكفارلن ومالكم برادبري، ترجمة مؤيد حسن فوزي، دار المأمون، بغداد، 1987م.
[8] المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية): جميل صليبا، ج 1،(1982) .
[9] أحمد محمد علي & عبد المحسن. (2016). المنهج الحداثي في تأويل القرآن الكريم-عـرض ونقـــد-إعداد دكتور/عبد المحسن أحمد محمد علي، مدرس بجامعة الأزهر–كلية أصول الدين فرع أسيوط، قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة الأزهر، مجلة كلية البنات الإسلامية (العدد الخامس عشر-الجزء الرابع: 2016م) .مجلة كلية البنات الإسلامية بأسيوط.3220-3021 ,(4)15 .
[10] أنيس الزمان، أنور عبد الملك، ترجمة فؤاد كامل، ص 40، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.
[11] أدونيس، ط3، دار العودة، بيروت، 1983م.
[12] الحنفي التهانوي، د.ت، ج 2، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. المعجم الفلسفي: جميل صليبا، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج 2.
[13] محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت.
[14] يوسف الخال، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ،1978م.
[15] شيماء شاهين. (2022). العقلانية والموضوعية منهجاً لدراسة التراث العربي: قراءة في كتاب «التراث والحداثة.. دراسات ومناقشات» للدكتور محمد عابد الجابري. جريدة مركز طارق والي العمارة والتراث, 7(14).
[16] حسن حنفي، محمد عابد الجابري وآخرون، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة ،1990م.
[17] القرآن الكريم، سورة النحل، الآية (103).
[18] القرآن الكريم، سورة فصلت الآية (40).
[19] د. مراد وهبة، ط5، مجلد1، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007م.
[20] الإمام الأكبر محمد الخضر حسين، تقديم وتعليق محمد ابراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية، الكويت، 1406هـ – 1986م.
[21] أدونيس، ع. أ. س .(2012) .الأعمال الشعرية الكاملة: الجزء الثامن. 2010: أشجار تتكئ على الضوء، ليس الماء وحده جواباً عن العطش؛ فضاء لغبار الطلع، كونشيرتو القدس.Dār al-Sāqī .
[22] نزار قباني .(1976) .الأعمال الشعرية الكاملة (Vol. 1) منشورات نزار قباني.

[23] ديوان محمود درويش، ط13، دار العودة، بيروت، لبنان، 1987.
[24] يوسف الخال. (1973). الاعمال الشعرية الكاملة.
[25] الأسس الفلسفية للحداثة: السيد صدر الدين القبانجي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي – بيروت لبنان، 2019.
[26] حداثة التخلف، تجربة الحداثة: مارشال بيرمان، ترجمة فاضل جكتر، ط1، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر،1413هـ – 1993م.
[27] عبد العزيز حمودة، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد الثاني، المجلد الحادي والعشرون،1993م.
[28] عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 2001م.
[29] نصر حامد أبو زيد .(2025) .نقد الخطاب الدينيHindawi Foundation .